



المنسوجات في الخلافة الإسلامية للدكتور ر. ب. سارجنت

—>>><<<—

وكانت فرنسا ، وإيطاليا ، والدويلات الألمانية ،
وأسبانيا ، وغيرها من بلاد أوربا تستورد المنسوجات
من الشرق الأوسط لاستعمالها في القصور الملكية
والأغراض الدينية في المعاهد الكنسية الثنية ، حيث
معظم النماذج المعروفة لتلك المنسوجات لا تزال باقية حتى اليوم ،
ولاسيا ما هو باق منها في الأقطار البلطيقية . وعلى مقتضى ما نقرأه
في دفاتر الحسابات الملكية الإنكليزية التي ترجع إلى منتصف
القرن الثالث عشر الميلادي ، كان ملك انكلترا قد اشترى منسوجات
إسلامية ليضعها في كنيسة وستمنستر . وقد اطلعت في سجلات
النفقات البيتية للوك اسكتلاندة في سنة ١٣٣١ ميلادية ، على
أصناف تشتمل على قطع من الحرير الرقيق من أنطاكية
وطرسوس وطرابلس الشام .

وفي عهد الخلفاء

العباسيين — بل في

عهد الخلفاء الأمويين

كذلك — كان

بلاط الخليفة يستورد

منسوجاته الثمينة

من مجموعة عظيمة

من المصانع التي

تملكها الدولة

لصناعة تلك المواد

القيمة وكانت تعرف (شكل ١) زخرف من اللؤلؤ وبه كتابة كوفية
تلك المصانع باسم مصانع الطراز . ويقول رحالة العرب إنه كانت
توجد مصانع للطراز في كثير من بلاد فارس ، ومصر ،
وأفريقية الشمالية ، وأسبانيا ، كما يذكرون أنه كانت هناك
مصانع للطراز في صقلية ، وسوريا ، والعراق ، واليمن . ومن
المرجح أن المنسوجات كانت تحمل من هذه المصانع إلى
قصور دمشق ثم بعد ذلك إلى قصور بغداد ، حيث كان يلبسها
رجال البلاط أو ينعم بها هدايا قيمة وتكرما للنعم عليه بتلك
الجلع ، من رجال الدولة ، حتى الشعراء والمغنيين كما يحدثنا بذلك
القصص الطريفة التي عملاً كتاب الأغاني . على أنه ليس

لقد طفت صناعات الغرب على جميع أنحاء العالم في أثناء
القرون الثلاثة الماضية ، حتى أوشكنا أن ننسى أن صناعات
الشرق ، ولا سيما الشرق الإسلامي وبزينة ، كانت تهافت عليها
البلاد الأوروبية تهافتاً عظيماً . ومحدثنا رحالة البلاد الغربية في القرن
السادس الهجري أن الإسكندرية كانت تموج بحركة الملاحة
وسفن النقل البحري من جميع ممالك أوربا حتى أقصى حدودها
الشمالية في البلطيق وإسكندناوة ، بله العديد من التجار الذين
كانوا من جهات أبعد في الشرق كالفنود وغيرهم . وليس ثمة شك
في أن تلك السفن حملت معها « الإسكندري » الثمين وهو نسيج
من التيل المطرز بالحرير . وأغنية رولان ، التي كتبت في القرن
الحادي عشر ، والتي كانت تصف حوادث عصر سابق بمدة طويلة
لتاريخ كتابتها ، تذكر جثة مكفنة بقطعة من نسيج الإسكندري .
وكما انتقلت تجارة المنسوجات إلى الغرب عن الطريق البحري ،
كذلك انتقلت إليه عن الطريق البري على الساحل الشمالي الإفريقي ،
كما أنها انتقلت إلى أوربا الشرقية كما يستدل على ذلك من العملة
الإسلامية التي ترجع إلى ذلك التاريخ والتي عثر عليها في الطريق
الرئيسية لأوربا الشرقية والسهول الشاسعة لبلاد روسيا ، مما
وصل إلى بعض البلاد التي في أقصى الحدود الشمالية لبلاد روسيا .
ومحدثنا ابن فضلان أن الروس كانوا يتجرون مع البلاد الإسلامية
في قراء القندر والسمور والسنجاب ، إذ كانوا يجلبونها من
الشمال بطريق الماء على نهر الفولجا ، يأخذون بدلوها المنتجات
المصنوعة في العالم الإسلامي التمدن .

والذين كادوا لا يملكون من سلطان الحكم أكثر من اعتمادهم لأولئك الذين كانوا يمتصون السلطة في أيديهم . فقد كانوا مثلاً يرسلون مجموعة من الحلل الملكية لأمير مثل محمود القزويني ، محتوية على منسوجات بغداد الخاصة . وقد عثر علماء الآثار القديمة على نماذج موشاة بالكتابة من صنع دار الطراز ببغداد في أجزاء أخرى من الإمبراطورية الإسلامية .

وكان من الطبيعي أن أنواع شتى من المنسوجات كانت تصنع أو تباع في العاصمة الإسلامية . فاليعقوبي يتحدثنا عن تجار المنسوجات الخراسانية بالقرب من ناحية الكرخ . وكانت بعض أجزاء مدينة بغداد تسمى بأسماء النسيج الذي تصنعه أو تبيعه . فالنسيج الذي من صنف التستر كان يشتري من حي التستارية . وتستر مدينة من مدن خوزستان على رأس خليج العجم . ومن الشائق أن نذكر أنه كان في تلك الولاية كثير من مصانع الطراز ترجع نشأتها إلى عهد الدولة الساسانية التي كان ملوكها قد نقلوا الصناع من حدود رومية ليؤسسوا صناعاتهم في جنوبي بلاد العجم وفي العراق . وربما كانت الثياب الدقيقة تصنع في حي الديقية على نهر عيسى ، وهو طبعاً نسيج أصله مصري ، كما أنه قد يكون أكثر الأنسجة تردداً على الألسنة وأعلاها قدراً في ذلك العصر . ويصف لنا الفرناطي نسيج العتابي بأنه مقم كجلد حمار الوحش ، وهو حيوان يقول عنه إنه من فصيلة الحمار ، وقد رآه في القاهرة وعند ما مات ذلك الحيوان حفظ جلده وحشي قطعاً لمرصه في أيام المواسم .

ولقد رأت الحكومة في تلك الصناعة الرائجة ، صناعة الأنسجة ، مصدراً لجلب الضرائب ، فحاولت في القرن الرابع الهجري أن تفرض ضريبة على جميع المنسوجات المصنوعة من الإبريسم أو القطن في المدينة ، مقدرة أن تجلب تلك الضريبة ألف ألف درهم للخزانة العامة . ولكن الضريبة كانت مكروهة ، وسببت اضطرابات عنيفة ، فقررت الحكومة فيما بعد بترضية الشعب بفرض ضريبة على المصنوعات الحرفية فقط . وأنشئ مكتب بحوار بركة زلزل ، وكانت جميع البضائع التي تدفع عليها ضريبة تخم هناك بخاتم الحكومة ، وهو نظام يثير العجب لانطباقه على الأساليب الحديثة الآن .

(البقية في العدد القادم) عن مجلة الأدب والصناعات

شك في أن هذه المصانع لم تكن من اختراع العرب الذين غادروا الصحراء وورثوا نظم الحكم وطرائق العيش عن البيزنطيين والفرس . ويشير الجهمشاري إلى أن ديوان الخراج كان يستعمل اللغة اليونانية في الغرب واللغة الفارسية في الشرق ، حتى حدث التعديل بنقل لغة الديوان إلى العربية . وهو يذكر شيئاً بالمنتجات الخاصة بكل إقليم ، والتي حملت إلى بغداد بصفتها جزءاً من الخراج وكثير منها كان من المنسوجات . فمن المرجح إذن أن ديوان الخراج كان على اتصال وثيق بإدارة مصانع الطراز . ويختلف المؤرخون في أصل نشأة الطراز ، أكانت في مصر أم في العراق ؛ ولكن المرجح أن الطراز كان في كل من القطرين منذ زمن لا نعلمه بالذاكرة ، بقية من نظام الضريبة النوعية التي كانت تدفع

ولقد كانت



الطراز من الأهمية في عصر العباسيين بحيث عين له رئيس خاص بإدارته ، ولم يقنع هارون الرشيد بشخص أقل من جعفر البرمكي

(شكل ٢) نسيج مصري مشجر يرجع

إلى حوالي سنة ١٣٠٠

نفسه لإدارة ديوان

البريد ، ودار ضرب النقود ، ودار الطراز — وهي وظائف لا بد أنها كانت تدر الخبز . وبإحلال الخلافة العباسية انحلالاً تدريجياً شرعت الإمارات الصغيرة تستولى على دور الطراز السلطانية أو تنشئ دوراً جديدة ، وعلى الخصوص في الأندلس وأفريقية الشمالية . ولإمام اليمن مصنع ملكي للطراز في صنعاء من المرجح أنه منحدر انحداً مباشراً عن مصنع الطراز الذي كان للخلفاء . وفي تاريخ غير معروف أنشئ مصنع ملكي للطراز على الضفة الشمالية لنهر دجلة بالقرب من الرصافة ، ولا بد أنه كان يضم مساحة كبيرة من الأرض . وكانت بغداد كما هو المنتظر من دخلها الضخم وبلاطها المترف وسكانها الذين يقدمون بعض من محتج بهم بمليين من الأتقى — أعظم مراكز صناعة المنسوجات في العالم الإسلامي . وكانت حلل ولاية العرش تصنع في دار الطراز حتى في المصور الأخيرة للخلفاء العباسيين المغلوبين على أمرهم